بقلم الأستاذ
طه عبد الباقى سرور

شهيد التصوف الاسلامى الحلاج

« .. بايـــة
حماسة وحمية
وجدانية »
« قامـر هذا
العاشـــــق
الجسور »
« برأسه كيما
يظفر بجوهـرة
الجمال الالهى »
« فريد الدين العطار »

شعاع على التاريخ :

منذ أكثر من ألف عام ، تركز سمع الدنيا وبصرها ، على الخاتمـــة الفاجعة ، لأعجب صراع شهده تاريخ الفكر ، وتاريخ الحياة الروحية فى الاسلام .

وتساءل الناس عن النبأ العظيم ، وهم فى غمرة ذاهلة من هول مـــا يترامى اليهم من همسات واحداث ، لقد غامرت الخلافة العباسية وقامرت ، بوجودها ومكانتها ، فالقت من أعلى مآذن بغداد ، برماد جثة رجـــل .. عذب ، وصلب ، وحرق . فى مشاهد مسرحية وحشـــــية . لا تمت الى الانسانية أو الآدمية بسبب أو نسب

وحملت أجنحة الهواء ، ذرات الرماد الشهيد الى الآفاق ، ومن ثم بدأ تاريخ عجيب رائع ونبتت حياة سامقة شامخة فقد تحولت كل ذرة من ذرات هذا الرماد ، الى مأذنة ومنبر ، يتلى عليهما فى مسمع الدنيا ووجدانهـــا وضميرها ، قصد هذا الشهيد ، وحياة هذا المصلوب ؟!!

ويا لها من قصة ، ويا لها من حياة أراق عليها الخلود فتنته وبريقه ، وأكسبها الاستشهاد سحره ونوره ، وأضفى عليها الحب الالهى جلاله وعطره ، ومنحها مقام الفناء ، بقاء يعجز كل فناء

ومنذ أكثر من ألف عام ، وقصة هذا الشهيد ، تعيش متلألئة بمشرقة متجددة فى قلوب الناس وعواطفهم ، وتحيا مقنعة مبهمة ملهمة ، فى عقول المفكرين واقلامهم !؟ أشبه ما تكون باللحن الذى اهتزت فى انغامه الأوتار وتشابكت ، ولكنه مع هذا نغم فاتن شجى ، غنى ثرى ، بالالهام والخيال والاحلام .

وتحولت القصة والمأساة الى أسطورة مجنحة ، ترتاد الافاق المتناقضة ، وتمشى مع الخيال الاسطورى الى القمم العالية السامقة المجللة بالضباب والسحاب ، فتزداد ابهاما وغموضا ، كما تزداد سحرا وبريقا

يقول المؤرخ الفرنسى ـ مويزو : « ان التاريخ هو ذاكرة البشرية ، ولكنها قد تضعف حينا ، وقد تصطنع الضعف احيانا »

ولقد كانت تلك الذاكرة ، اضعف ما تكون ، أو فرض عليها ان تكون أضعف ما تكون ، وهى تقدم للناس عبر القرون ، تاريخ الحلاج ورسالة الحلاج .

لقد زيفت ذاكرة التاريخ عن عمد خبيث ، وعن تدبير هادف ، واصطنعت صورا خادعة مضللة زائفة ، لاعظم حقبة فى تاريخ المعرفة الصوفية ، ولأخطر رجل فى تاريخ الحياة الروحية .

ولقد عرفت جميع اللغات ، حياة الحلاج ومأساته ، وامتلأت حقائب التاريخ العالمى ، بألوان من الاساطير ، حول فلسفته الروحية ، وتعددت فى التراث الانسانى ، صور حبه ومجاهداته القلبية . وسبحاته الوجدية ، ولكنها صور وشاها الخيال ، واعتنى فيها المصورون بالتلوين والظلال ، عناية طمست الحقائق ، وغيرت وجهها ، وشوهت لونها ، وانحرفت بها عن جوهرها ورسالتها .

ولقد تحاشى مؤرخو الحياة الروحية فى الاسلام هذه المأساة وسرها وما يدور حولها ، تحاشاها القدامى تحت ظلال صيحات الرعب والهول ، التى أطلقها العباسيون ، مدمدمة حول الحلاج وتاريخه ، وحول من يلوذ به ، أو يترنم بلحونه وأهدافه ، حتى أن السراج الطوسى ، وهو معاصر للحلاج أو يكاد ، وهو أكبر المؤرخين للحياة الروحية ، وسير اعلامها ورجالها . أهملها وتجاهلها ، مع جلالها ومكانتها

وحتى انه ليستشهد فى كتابه العظيم « اللمع » فى أكثر من خمسين موضعا بكلمات الحلاج فى المعرفة والتصوف ، دون أن يذكر اسمه ، بل يصطنع تعبيرا عجبا ، فيقول : قال بعضهم !؟ أو قال القائل !؟

وجاءت كتب الطبقات الصوفية ، فتحدثت فى اسهاب ، وفى اسراف ، عن كل ما يتعلق بالتصوف ورجاله ، وقادته واعلامه . ومرت سريعة خفيفة ، بسيرة الحلاج ، أو حومت حولها ، فى حذر مصطنع . وتجاهل متعمد .

ثم جاء المحدثون من أصحاب الاقلام ، فوقفوا حيارى ذاهلين أمام المأساة الحلاجية ، أو العقدة الحلاجية . فقد زيفت تلك المأساة تزييفا فنيا رائعا ، فتقنعت احداثها بالغموض ، واشتبكت صورها بالاهواء ، وتضاربت فيها الاقوال ، وامتلأت آفاقها بالاساطير والخيال

فقد اشترك الجهاز العباسى العالمى بكل قواه ، وبكل عملائه ، من علماء وفقهاء وشعراء وكتاب ، فى هذا التزييف الذى لم يعرف له التاريخ مثيلا

وجاء رجال التاريخ الاسلامى ، وجلهم من الحنابلة المتزمتين فألقوا ما فى صدورهم ، من موجدة ، ومن حقد على التصوف الاسلامى ، على رأس الحلاج وتاريخه ورسالته

وعجزت كل هذه الخصومات ، وكل هذه الاباطيل والاساطير ، عن ان تطفىء شعاع هذا الروح الكبير ، وظل شعاعه الروحى يومض فى أفق الحياة ومضات تترك آثارها ولمساتها فى القلوب والعقول ، وفى الضمير الانسانى ، والوجدان البشرى

والتاريخ كما يقول العلامة ـ سبنسر ـ : « لا يموت » فان حقائقه وان توارت فى زحام الاغراض ، وصيحات الاقزام ، تستعصى ابدا على الفناء

ومن هذه الحقائق المتناثرة ، التى أثقلت كواهلها أكداس هائلة ، من التزييف والتلفيق ، نحاول ان نقيم حياة وأن نجعلها على جبين الشمس واضحة سافرة .

والحلاج شخصية غنية خصبة ملهمة ، شخصية تفتح أبوابا للتفكير ، ومسرحا للخيال ، ومجالا للعاطفة ، شخصية تعددت جوانبها ، واتسعت آفاقها ، واحتشدت فيها جميع الانفعالات النفسية والوجدانية ، والالهامات الروحية والقلبية ، والرياضات العقلية والجسدية .

كما تمثلت فى وقائعها كافة العناصر التى تصنع بطولات التاريخ ومعجزاته ، بكل ما فى البطولة من عزة وسموق وعظمة ، واستشهاد ونضال وفداء وقوة

وفى اطار هذه الشخصية الشامخة ، نعاصر حقبة حاسمة فى التاريخ الاسلامى ، الفكرى والحضارى ، فنرى الصراع المشبوب الاوار ، بين المعتزلة والحنابلة ، والشيعة والقرامطة ، والفقهاء والصوفية

ونشهد حياة القصور العالية ، وما فيها من اسراف وترف ، وشهوات وغوايات ومؤامرات ، وكيف تتشابك العواطف بالاحداث ، لتجعل من خلفاء العباسيين الذين دانت لهم الارض ، ألعوبة فى أيدى العبيد والنساء ، وأشباه العبيد والنساء .

ونرى العالم الاسلامى ، وهو يتمزق بعد وحدة ، وتنتابه انتفاضات فكرية وثورية ، واقتصادية وثقافية

ونطالع الحياة الروحية ، فى أزهى عصورها ، وأنبل صورها عصر النجوم المتلألئة ، عصر المدارس الصوفية الكبرى ، التى دفعت بمناهجها فى المعرفة والسلوك ، الى ساحات الفكر الاسلامى ، وأطلقت فى جو عاصفة الجدل والحوار ، والخصومات المذهبية الجامحة ، كلمات جذابة حلوة لها اغراء ورنين وبريق ، كلمات الحب ، والوجد ، والشوق ، والأنس فى الحضرة الربانية ، والساحة القدسية

وما تلهم هذه الكلمات النورانية ، من أدب النفس ، وسمو الحس ، وطهارة القلب ، ونبل الخلق ، وتصعيد الاعمال كافة الى الله سبحانه ، وافاضة المعنى الروحى على كل شىء فى الوجود ، وما يترقرق حول هذه المعانى ، من أشواق ورياضات ، وأذواق والهامات .

وفى قلب هذا الخضم ، بانفعالاته المتوترة الحية ، وبأفكاره المتدفقة المحلقة وباحداثه الثائرة المضطربة ، وبترفه وشهواته الجامحة .

برزت شخصية الحلاج ، لتحدث فى الدنيا دويا ، وتحدث فى الجماهير سحرا ، وتلقى على كل شىء مسته حياة وحرارة وانفعالا

كان الحلاج عبقرية من تلك العبقريات الاستهوائية ، التى يعرفها التاريخ فى لحظاته الحاسمة

وبلغ من عظمة هذه الشخصية ، انها غدت النبأ العظيم فى آفاق التصوف والمعرفة ، كما كانت النبأ العظيم فى آفاق الاصلاح والثورة

كان الحلاج يملك قوة روحية عالية ، من تلك القوى التى يفيضها الله على من يشاء من عباده ، وكانت تلك القوى الروحية تمنحه فيما تمنح ، القدرة الموحية المؤثرة الصانعة فى عواطف الناس وقلوبهم وأحاسيسهم ، وتضفى عليه طاقة تلهم الآمال الكبار ، لكل من يلوذ به ، أو يدنو منه ، بل لقد شهد أمناء أتقياء ، بأنه كان يؤثر بروحانيته العجيبة ، فى الجماد والنبات والحيوان

ومن هنا توهم أعداؤه فيه السحر والشعوذة ، وتوهم أحبابه فيه القدرة الخارقة القادرة على صنع المعجزات ، حتى لقد نسبوا اليه ، احياء الموتى ، وبعث من فى القبور !!

ويحدثنا شيخ الصوفية الاكبر محيى الدين بن عربى • فى الباب الثالث والستين واربعمائة • من كتابه ـ الفتوحات المكية فيقول : « ان الحلاج كان يدخل بيتا عنده يسميه بيت العظمة ، فكان اذا دخله ملأه كله بذاته باعين الناظرين ، حتى ان بعض الناس ممن لا يعرف تطورات أحوال هذا المقام ، نسبه الى علم السيميا ، لجهله بأحوال الفقراء فى تطوراتهم

ولما دخلوا عليه ليأخذوه للصلب ، كان فى ذلك البيت فما قدر أحد أن يخرجه من ذلك البيت ، لان الباب يضيق عنه ، فجاء الجنيد وقال له : سلم لله تعالى ، واخرج لما قضاه وقدره ، فرجع الى حالته المعهوده • فخرج فصلبوه ••

ويقول صاحب الفهرست (١) : « حرك الحلاج يده يوما فانتشر على قوم مسك • وحرك مرة أخرى يده ، فنثر دراهم »

ويقول العلامة البغدادى (٢) : « ووقع له عند الناس قبول عظيم ، حتى حسده جميع من فى وقته »

ويهتف خلصاؤه وتلاميذه يوم صلبه : « لم يمت الحلاج بل ارتفع الى السماء •• وسيعود !!؟ »

لقد عجز الموت فى أبشع صوره ، وأقسى ألوانه ، ان ينتزع الهالة الكبرى ، التى تحيط بتلك الشخصية الضخمة الرائعة •

ويمشى سحر الحلاج وجلاله ، وتأثيره القوى الغلاب ، الى رجال الاستشراق ، فيتحدثون عنه كبطل أسطورى ، من رجال الغنوص الشرقى (٣) وكشخصية مكررة من شخصية المسيح عليه السلام جاء ليعيد مأساة جبل الجلجلة «٤» وليكرر فكرة الفداء ، فداء البشرية من الخطيئة الاولى

ولكن هل حشدت الخلافة العباسية ، كل قواها لقتال الحلاج ، وأعدت كل ما تملك من وسائل الجبروت الوحشى ، والعنف البربرى فى عذابه ومحاكمته وصلبه ، واتهامه بالالحاد والمروق !! من أجل مواجيده والحانه فى الحب الالهى ، ومن أجل الهاماته وفتوحاته ، فى مقامات الفناء الصوفى ، وعجائبه وقدرته على الايحاء والالهام ، وصنع الكرامات والمعجزات !؟

---

(١) ص ٢٦٩

(٢) ماضى الاسلام وحاضره ص ١٧٢

(٣) الغنوص : كلمة يونانية الاصل معناه : العلم ، او المعرفة • ثم اصبحت اصطلاحا على المذاهب التى تتوصل الى المعرفة بطريق الكشف ، ثم اتسع مدلولها حتى اصبحت علما على المذاهب الشرقية ، الفارسية والهندية التى تضم الى جانب منهجها فى المعرفة مجموعة الاسرار والسحر •

(٤) الجبل الذى قالوا : ان عيسى عليه السلام صلب عليه

يقول المؤرخ الكبير صاحب الفهرست : « لقد كان الحلاج جسورا على السلاطين ، يروم انقلاب الدول » ـ ١ ـ

ويروى لنا امام الحرمين ـ الجوينى ـ : « ان الحلاج كان يريد قلب الدولة ، والتعرض لافساد المملكة »

ويقول المستشرق نيكلسون فى كتابه ـ الصوفية فى الاسلام : « ان قتل الحلاج أملته دوافع سياسية لا تعرف الرحمة »

ويقول العلامة ـ جولد زيهر ـ فى كتابه ـ محاضرات عن الاسلام : « لقد أثرت صيحة الحلاج الصوفية : معرفة الله : تأثيرا عميق الاثر ، فى الحياة العلمية الاسلامية »

ثم يقول : « لقد أخذ الحلاج يتدخل فى حياة المجتمع الاسلامى تدخلا شديد الوطأة »

ويقول العلامة المستشرق ـ ماسنيون ـ ٢ ـ : « كان الحلاج يحرك الجماهير ، وينادى بالاصلاح ، ويبشر بفكرة الحكومة المثالية التى تقيم الشريعة على نغمات المحبة والعبادة الخالصة لله »

واذن فصيحة الحلاج الصوفية الاصلاحية ، ودعوته الى اقامة حكومة ربانية مثالية ، هى سر المأساة الكبرى ، أو احدى اسرار تلك المأساة الكبرى

ومأساة الحلاج ، كونتها عناصر تاريخية ونفسية وخلقية . وفى طليعة تلك العناصر ، الرهبة التى استشعرها العباسيون من القوى الصوفية النامية ، التى أخذت تهيمن على العراق فى القرن الثالث الهجرى .

يقول العلامة ابن الاثير بعد أن شرح الموقف فى الامبراطورية العباسية والصراع الناشب بين الفرق والطوائف ـ ٣ ـ « ولكن فرقة واحدة بقيت بعيدة عن التعصب ، الا وهى فرقة الصوفية فقد كانوا يمتازون بسلامة الفكر والعفة والاخلاق الحميدة كما كان أفق تفكيرهم أوسع بكثير من غيرهم فأكسبهم هذا حب كثير من الناس ، وأخذ نفوذهم يزداد ويقوى ، وهرع كثير من الناس الى حظيرتهم بعد أن رأوا جور الزمان وقسوته ، وكثرت مجالس الصوفية وأقبل الناس عليها »

تلك هى مكانة التصوف فى العراق خلال تلك الحقبة من التاريخ ، لقد غدا اتباعه ، القوة الحية النامية فى المحيط الممزق المضطرب

ـ١ـ ص ٢٧٠

ـ٢ـ شخصيات قلقة

ـ٣ـ نظام الكنجوى ص ٦٥

وكان فى بغداد ، عمالقة من الائمة الروحانيين ، وزعماء من القـــــادة الصوفيين .. كان هناك أبو القاسم الجنيد ، والشبلى ، وسهل التسترى وعمر المكى ، والسرى السقطى

ولكن الحلاج ، كان أقواهم شخصية ، وأوسعهم نفوذا ، وألصـــقهم بالجماهير ، وأكثرهم قدرة على حمل راية الكفاح والنضال

كان الحلاج يحمل روح ثائر ، وقلب قطب ، وعقل زعيم ، وروح محب عابد . وكان يؤمن بالتصوف العملى الايجابى ، الذى يسهم فى الاحداث

وكان يبشر عن عقيدة ثابتة لا تتزلزل ، بحكومة الاقطاب الروحانيين ، كما كان يؤمن بأثر الصلاة والعبادة ومحبة الله ، فى اصلاح المجتمـــع ، والارتفاع بالجماهير الى أفق أنبل وأعلى .

ومن هنا كان الحلاج فى نظر الخلافة العباسية ، هو الزعيم الصـــوفى الذى يهدد سلطانها ونفوذها ، ويؤلب الجماهير ضـــــد مظاهر الترف والاسراف والشهوات العالية الصوت فى محافلها وقصورها

يقول الاصطخرى : « ان كثيرا من علية القوم فى بغداد رأوا فى الحلاج انه هو الرئيس القطب المنقذ

وفى طليعة من آمن به من الوزراء : على بن عيسى ، وحمد القنـــائى ، والدولابى ، ونعمان ، ومحمد بن عبد الحميد

ومن الامراء : الحسين بن حمدان ، ونصر القشورى ، ومن ولاة الامصار أبو بكر الماذرائى ، ونجح الطولونى ، ومن دهاقين فارس واشراف الهاشميين أبو بكر الربعى ، وأحمد بن عباس الزينبى .

ثم يقول : وكانت له معهم مراسلات مما هيأ لهم الهداية ، وهيأ لـــه الخوض فى السياسة ، وواجبات الوزراء »

وتلك الصورة التى رسمها لنا الاصطخرى : تدل دلالة كبرى على مدى الاثر الكبير ، والنفوذ الواسع ، الذى ظفر به الحلاج ، فى الدوائر العليا للخلافة العباسية

يقول ـ ماسنيون ـ : « لقد طالب الحلاج باصلاح الادارة الحكومية فى جرأة غير مسبوقة ، ونادى باقامة حكومة اسلامية حقا ، ووزارة كمـــا يقول : تحكم بالحق والعدل بين الناس ، وهاجم عمال الخراج ، وطالب كما يقول : بخلافة تشعر بمسئوليتها أمام الله جل جلاله ، مما يجعل الله يرضى عن قيام المسلمين بفروض دينهم ، من صلاة وحج وصيام »

تلك بعض الومضات التى تومىء الى بعض جوانب الرسالة التى نهض بها الحلاج ، والتى سنعرض لها بالتفصيل والبيان ، كما كانت السر الاكبر فى اتهامه بالالحاد والحلول .

ولن يضير الحلاج ، ان النجاح لم يكتب لرسالته ، وانه قدم حياته فداء لتلك الرسالة ، فقد يكون الاستشهاد فى سبيل الفكرة والعقيدة ، اسمى الوان النجاح ، وأعلى ضروب النصر

« وكما يقول ابن أبو الخير فى ملحمته الحلاجية : « ان المـــوت على مصلب الحلاج ، ميزة الابطال »

ويقول حافظ الشيرازى ، شاعر التصوف الاسلامى ، فى احـــدى قصائده : « ان تصلبنى الليلة ، فان دمى يخط على الارض ــ انا الحق · مثل منصور الحلاج ·

ولما أراد جلال الدين الرومى ، عبقرى الشعر الفارسى الصـــوفى ، ان يصعد بفريد الدين العطار ، فى معارج الحب الالهى · وفى مجالات البطولة الخالدة قال : ان روح الحلاج تجلت فى العطار

ثم عقب بقوله : « لقد بلغ الحلاج قمة الكمال والبطولة ، كالنســـر فى طرفة عين »

لقد كانت تضحية الحلاج هى سر خلوده ، فقد صعد الحلاج بتلـــك البطولة الفدائية المضحية الى قمة الكمال كالنسر الجبار الجناح ، وغدا فى قلوب المتصوفة وعقولهم ، محجة ومنارة ترشد الى المثـــل الاعـــلى ، فى اشراقاته والهاماته ·

وأصبح الحلاج بهذا الاستشهاد الاسطورى ، الملهم الاكبر لمواجيـــد الشعراء وألحانهم وأغانيهم فى الافق الصوفى

فهو فى الشعر التركى ، الولى الاكبر ، وهو لدى الهنود : شـــهيد الحق كما يقول اقبال · وهو الملهم الاول لعباقرة الشعراء الفارســـيين العالميين ، حافظ الشيرازى ، وجلال الدين الرومى ، وفريد الدين العطار

وامتد الهامه عبر القرون ، فنشأت الفرق الصوفية الكبرى ، على وقـع تغماته ودعواته ، وهدى تفكيره وآدابه ، حتى ان البكتاشية التى هيمنت على تركيا وألبانيا ، قرونا عديدة ، ترجع فى أصولها الى الحلاجية

يقول الدكتور عبد الوهاب عزام (١) ــ فكان عند الصوفية ولا سيما صوفية العجم والهند ، كالمسيح عند النصارى ، واتخذوا كلماته شـــعارا ودثارا ، واشادوا بذكره ، وجعلوه مثلا للصوفى الفانى بالله »

ويقول المستشرق ماسنيون ــ ٢ ــ « ان أقوال الحلاج ترسم له حيـاة بعد موته ، ذات طابع حضارى عميق ، وأكثر صدقا من الناحية الاجتماعية

---

(١) كتاب فريد الدين العطار والتصوف · ص ٣٠
ـ٢ـ شخصيات قلقة ص ٨٥

من الشهرة الادبية التى نالتها نماذج ، مثل الاسكندر ، أو قيصر لدنيا فى الغرب »

ثم يقول : كان الحلاج ، نموذج الولى الذى مجده الشعب التـــركى المجاهد ، الذى أقبل على الاسلام فى أعقاب مصرع الحلاج »

ويتحدث فريد الدين العطار عن مدن العشق السبع ثم يقول : « الحلاج ذلك الشهيد العالمى · الذى قدم للدنيا صورة الولاية الكبرى ، وقد بلغت أوجها فى تضحية حربية ، مليئة بالرجولة · مليئة بالالهام »

ويستعرض ماسنيون الامتداد الروحى للحلاج · فيقول : ان دم الحلاج يعتبر بذرة روحية تضمن استمرار الالهام لمحبيه · ثم يقول : « والحلاج يدعى فى الدعوات الشخصية ، خصوصا فى بلاد الترك لوقف بكاء الاطفال الصغار ، ولا يزال قبره التذكارى الخالى من رفاته الذى أقيم له فى بغداد كعبة الزائرين

والمزمار الرئيسى فى الحفلات الموسيقية الروحية عند المولوية يدعى باسمه ـ نای منصور »

لقد كان الحلاج دائما يقول فى دعواته : « يا معين الفناء على اعنى على الفناء »

وسواء كان يقصد فناء الحب · أو فناء الامتداد الروحى · فقد استجاب الله الدعاء ، فاستعصى الحلاج على الفناء · وحلق خالدا فى آفاق الشهداء · وستبقى قطرات دمه بذرة روحية ، تضيف فى كل يوم الى التصـــــوف الاسلامى قوة ونماء

وذلك خلود من ظفر بجوهرة الحب الالهى · واستشهد فى سبيلها

البحث مستمر **طه عبد الباقى سرور**

حج مبرور

سافر الى الاقطار الحجازية لتأدية فريضة الحج الاســـتاذ السيد الجبالى وكيل المشيخة العامة والسيد محمود الحصاوى نائب السادة الرفاعية بمركز كفر الزيات